حركات الإصلاح الإسلامية

٣ ـ أزمة إســـلامية

للدكتور على حسن عبد القادر

دكتور فى الفلسفة والعلوم الاسلامية من جامعة برلين
ومدرس بكليـة الشريعة

تقوم على قمة حركات الإصلاح الحديثـة شخصية ليس لها فى الواقع دخل أو اتصال مباشر بالحركة الوهابية التى أسلفنا الكلام عنها ، وقد وصف هـذه الشخصية بحق جولد زيهر « بأنها صورة غريبة ظهرت فى الإسلام أثناء القرن التاسع عشر » . ذلك هو جمال الدين الأفغانى (١٨٣٨ — ١٨٩٧) « الذى كان فيلسوفاً ، أديباً ، خطيباً ، صحافيًّا ، وفوق هـذا كله كان ... سياسيًّا »[1] والذى قال عنه براون فى كتابه الثورة الفارسية : « بأنه أثر خالد باق على الأجيال »[2]

ولقد رحل جمال الدين من أفغانستان وجاب العالم الإسلامى وأوربة ؛ بل ومن الممكن أيضاً أن يكون قد جاب بلاد أمريكا !

(١) دائرة المعارف الاسلامية جزء ١ ص ١٠٥٢ . وراجع أيضاً كتاب الخلافة للدكتور السنهورى بك La Cabhot. P. 506

(٢) E. J. Broune, The Persian Revolution

نطلب أن يصادر الميزان المختل ، وأن يحجر على الناس استعماله ، وندعو « جماعة كبار العلماء » أن تصطلح على ميزان صحيح مضبوط ، من كتاب الله وسنة رسوله « وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان ! »

ولـكن عفوا فقد نسيت ! نسيت إنى عالم صغير ، ولا يجوز أن يتطاول الصغير إلى مقام الـكبير ! . فهل من عالم كبير يحمل عنى لواء هذه الدعوة فيأخذها بقوة ، ويأمر قومه أن يأخذوا بأحسنها ، قبل أن تأخذنا الأحداث ، وتأتينا سنة الله فى الغافلين ؟!

« ربنا ظلمنا أنفسنا ، وإن لم تغفر لنا وترحمنـا لنكونن من الخاسرين »

محمد المدنى

وهو يعتبر ـ بدون شك ـ أباً لأفـكار الجامعة الإسلامية : Panislamamische Jedanken على ألا نخلط بين أغراض هذه الجامعة وبين ما كان يحاوله عبد الحميد من انقلاب فى السياسة العملية . ومن الحق أن نقول : إنه كان أول من دعا إلى اتحاد ساسة المسلمين فى وجه أطماع الغرب . ولكنه كان مع ذلك يحس فى قرارة نفسه بالحاجة الماسة لبناء جديد من العالم الإسلامى تدخل فيه عناصر حرة ، ويقطع ما بينه وبين التقاليد الموروثة من صلات وأواصر . ونظراً إلى أن جمال الدين الأفغانى كان ذا نزعة صحافية ، وكانت له وجهة نظر سياسية فى الغالب تؤثر فيه ، ونظراً إلى أنه لم يكتب كثيراً ، فإنه من الصعب أن نحقق تأثير هـذه الشخصية الهائلة فيمن حولها . ورغماً مما أثاره فى الغرب من ضجيج[1] ، فإنه من الصعب أن نستشف دخيلة نفسه ولن يحصل هذا أيضاً ، فإننا لا نعرف من أين جاءته هذه الدوافع . بل إنه لم تصلنا تأثيراته فى شكل محدد لأن تأثيره كان فى الغالب فى ثوب المعلم والمحرك أكثر مما هو فى ثوب الـكاتب ؛ ولهذا فإنه من الخير لنا أن نحكم على الثمار التى نضجت على يديه . وهنا يثبت لنا أنه يرجع إليه الفضل فى تلاميذه الذين هم كبار رجال الإصلاح وذوو اليد الطولى فيه وهم يشكرون له كل ما عندهم من خير

وعند ظهور جمال الدين الأفغانى كانت تتردد فى الهند بعض أصوات ، ويدور القول حول إصلاحات آخذة فى النهوض فى وجهات وأشكال مختلفة ، ولـكنا لا نعرف بالدقة مدى ارتباط جمال الدين ببدء هذه الحركة فى الهند وهل كان له فيها يد أو كان الأمر بالعكس ، فهما من ناحية التأثير يتلاقيان مماً عند خطر واحد ، وفى العصر الحاضر مع هذا يعتبر جمال الدين عند الشباب فى الهند المعهد العظيم للطريق

وكانت تربة الهند فى أوائل القرن التاسع عشر قد مهدت من ناحية تأثرها قليلاً أو كثيراً بالوهابية العربية ، وكانت الحال فى الحقيقة تبدو متفقة معها ، ولو أن شكل الحركة الوهابية الشعبية

(١) راجع على الأخص محاورات رينان فى ختام كتاب (الاسلام والعلم) R. l'Islamisme et La Science

المتحنثة لم تكن هى التى غذّت الحركة الهندية الإصلاحية فى روحها فإن حركة التجديد فى الهند صدرت عن طبقة غير مثقفة تثقيفاً عالياً ، وكل ما هنالك أن هـذا التقابل بين هذه الحركة والحركة الوهابية يمكن أن تشرحه وتفسره هذه اليقظة التى جاءت من تلك الهزة العنيفة التى صدرت من المركز الإسلامى بالبلاد العربية

وقد ظهرت حركة الإصلاح فى الهند للعيان فى شكل حركة عقلية على رجال مثل سيد احمد خان مؤسس مدرسة عليكره (المتوفى سنة ١٨٩٨) قديماً، ومن أمثال أمير على وخودا باخشا حديثاً ، وقد تأثر هؤلاء الهنود تأثراً عميقاً بما هو ظاهر ملموس فى وطنهم على الأخص من تأخر المسلمين وما أصيبوا به من ضرر بالغ من جراء جمودهم إزاء المدنية الحديثة ، وهم على العموم — مخالفون فى هذا جمال الدين — لم يندفعوا بدافع سياسى ، بل أنهم اعتبروا خضوع الهند للانجليز أمراً ضرورياً وأمراً مرغوباً فيه لذلك ؛ كما أن حركتهم لم تصدر أولاً وبالذات عن أفكار دينيه اقتنعوا بها . وكل ما هناك أنهم عرفوا الثقافة الغربية واتصلوا بها ، فقاموا بحركتهم تحت تأثير تأخر المسلمين . وإنهم كمسلمين محبين للاسلام — كما أحسوا — كانوا يرون أن الإسلام الصحيح الخالص لا يقف فى طريق الثقافة الحديثة بأى شكل ، وأنه فى الأصل هو الدين الوحيد صديق العلم والتقدم . وعنوا « الإسـلام الصحيح » ولم يتكروا أن الإسلام على ما هو عليه فى الوقت الحاضر فيه ما يجانب الإصلاح . وقد جاء هـذا كما قالوا من أن البحث المستقل فى مراجع الدين الأصلية — يعتون الاجتهاد — غير جائز ، وأن الناس خاضعون للتقليد الأعمى من جراء الإجماع الذى طغى على الإحساس وجعل الفقه جامداً مقيداً، وأن أفكار المتأخرين سويت بتعاليم الرسول[1]، وقد رفضوا الأخذ بأحاديث كثيرة وتمسكوا بشدة بالقرآن الكريم

وقد اعتقد المصلحون بالهند — وليس ذلك بصحيح دائماً من الناحية التاريخية — بالمعتزلة الذين صوروهم بأنهم المفكرون الأحرار واتخذوهم كمثل عليا فى التجديد . وسموا أنفسهم أحياناً بطيبة خاطر « بالمعتزلة الحديثة » لأنه فيهم قد ظهرت إلى الحياة أغراض هذه الفرقة الإسلامية الحرة وجهودها

ويظهر من طبيعة الأشياء أنهم أخذوا تعاليم من طريقة هذه المدرسة القديمة مما لم يفكر فيه بعد فمن هذا فكرة « تطور الفقه » التاريخية « فهم — أى المعتزلة — يرون بالنسبة للأعمال الإنسانية أنه لا يوجد قانون دائم وإن النظام الإلهى الذى ينظم سلوك الإنسان نتيجة للتقدم والتطور ، وأن الله نظم أوامره ونواهيه فى شكل متدرج متطور من القانون »[1] ، وقد بحثوا باجتهاد وذكاء فى شرح المعانى والأغراض فى القرآن والحديث الذى يستعملونه إذا خالف ذلك أفكارهم فى سبيل التدليل على أن الإسـلام الصحيح يحض على العناية بالعلم بلا قيد ولا شرط ولا يخالف نتائجه ، وهنا أظهروا حقاً صورة للاسلام كمثل أعلى .

على أن هذه الطريقة التى استعملها رجال الإصلاح وإن كانت لا تقوى أحياناً على النقد التاريخى ، فإنه مما يستحق التقدير حقاً كفاح هؤلاء الرجال فى قضية أضاءت فى نفوسهم، والمهم فى الحكم إنما هو الغاية لا الطريقة ، وهى ليست إلا محاولة لتحرير الإسلام من قيود المدنية للقرون الوسطى

والأمر الغريب هنا هو أن الخطوة الأولى لهذه الغاية الجريئة وهى رفض الفقه الإسلامى لم يقم بها على أساس ثابت مأمون ولم تأخذ اهتماماً عملياً ؛ ويظهر أن حالة التقوى تمنع من ذلك

ولـكن بجانب هذا قد مهد الطريق الآن لفهم التاريخ فهماً واضحاً لتقبل الفكرة التى تقول أن النظم المعتبرة تاريخياً لا يمكن أن تبقى سائدة دائماً ، وفى آخر الأمر يكون قد تم الانتصار على مبادئ الضعف ، وأكلت على الأقل خطوات خطاها المدافعون الأحرار عن المعارف الدينية التاريخية[2]

هذه هى كلمة الأستاذ هرتمان عن حركة الإصلاح فى الهند ، أما حركة الإصلاح بمصر فوعدنا بها المقال الآتى إن شاء الله تعالى

على حسن عبد القادر

(١) S. Ameer Ali. Sprit of Islam (Ausgabe Vou 1923) S. 183 u. 237

(١) راجع فى ذلك ما قاله أمير على فى : Religion Ancient And Modern (London Archibald Constable & Co. 1906

(٢) Becher, Islam, 3, 198